فكثيراً ما يدعو الإنسان بالخير لنفسه أو بما يراه خيراً ، فلا يجد وراءه إلا الشر والتعب والشقاء ، وفى المقابل قد يُنزل الله بك ما تظنه شراً ، ويسوق الله لك الخير من خلاله .

إذن : أنت لا تعلم وَجْه الخير على حقيقته ، فدع الأمر لربك عز وجل ، واجعل حظك من دعائك لا أنْ تُجابَ إلى ما دعوت ، ولكن أن تظهر ضراعة عبوديتك لعزّة ربك سبحانه وتعالى .

ومعنى : ﴿ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ .. (١١) ﴾ [الإسراء]

أى : أن الإنسان يدعو بالشر فى إلحاح ، وكأنه يدعو بخير .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ(١) ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا (١٢) ﴾

الحق سبحانه وتعالى جعل الزمن ليلاً ونهاراً ظرفاً للأحداث ، وجعل لكل منهما مهمة لا تتأتّى مع الآخر ، فهما متقابلان لا متضادان ، فليس الليل ضد النهار أو النهار ضد الليل ؛ لأن لكل منهما مهمة ، والتقابل يجعلهما متكاملين .

ولذلك أراد الله تعالى أن يُنظّر بالليل والنهار فى جنس الإنسان

---

(١) محونا : طمسنا . وقال على بن أبى طالب وقتادة : يريد بالمحو اللطخة السوداء التى فى القمر ، ليكون ضوء القمر أقل من ضوء الشمس فيتميز به الليل من النهار . [تفسير القرطبى ٩/٣٩٥٦] .

من الذكورة والأنوثة ، فهما أيضاً متكاملان لا متضادان ، حتى لا تقوم عداوة بين ذكورة وأنوثة ، كما نرى البعض من الجنسين يتعصَّب لجنسه تعصُّباً أعمى خالياً من فَهْم طبيعة العلاقة بين الذكر والأنثى .

فالليل والنهار كجنس واحد لهما مهمة ، أما من حيث النوع فلكل منهما مهمة خاصة به ، وإياك أن تخلط بين هذه وهذه .

تأمل قول الحق سبحانه : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤) ﴾ [الليل]

فلا تجعل الليل ضداً للنهار ، ولا النهار ضداً لليل ، وكذلك لا تجعل الذكورة ضداً للأنوثة ، ولا الأنوثة ضداً للذكورة .

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ .. (١٢) ﴾ [الإسراء]

جعلنا : بمعنى خلقنا ، والليل والنهار هما المعروفان لنا بالمعايشة والمشاهدة ، ومعرفتنا هذه أوضح من أنْ نعرِّفهما ، فنقول مثلاً : الليل هو مَغِيب الشمس عن نصف الكرة الأرضية ، والنهار هو شروق الشمس على نصف الكرة الأرضية .

إذن : قد يكون الشيء أوضح من تعريفه .

والحق سبحانه خلق لنا الليل والنهار ، وجعل لكل منهما حكمة ومهمة ، وحينما يتحدَّث عنهما ، يقول تعالى : ﴿ وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) ﴾ [الضحى] فبدأ بالضحى .

ويقول : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) ﴾ [الليل] فبدأ بالليل .

ومرة يتحدث عن اللازم لهما ، فيقول : ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ (١) ﴾ [الأنعام]

لأن الحكمة من الليل تكمن في ظُلْمته ، والحكمة من النهار تكمُن في نوره ، فالظُّلْمة سكَنٌ واستقرار وراحة . وفي الليل تهدأ الأعصاب من الأشعة والضوء ، ويأخذ البدن راحته ؛ لذلك قال ﷺ : « أطفئوا المصابيح إذا رقدتم »(١) .

في حين نرى الكثيرين يظنون أن الأضواء المبهرة - التي نراها الآن - مظهر حضاري ، وهم غافلون عن الحكمة من الليل ، وهي ظلمته .

والنور للحركة والعمل والسَّعْي ، فمَن ارتاح في الليل يُصبح نشيطاً للعمل ، ولا يعمل الإنسان إلا إذا أخذ طاقة جديدة ، وارتاحت أعضاؤه ، ساعتها تستطيع أن تطلب منه أن يعمل .

لذلك قال الحق سبحانه : ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ .. (٧٣)﴾ [القصص]

لماذا ؟ ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ .. (٧٣)﴾ [القصص] أي : في الليل .

﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (٧٣)﴾ [القصص] أي : في النهار .

إذن : لليل مهمة ، وللنهار مهمة ، وإياك أنْ تخلط هذه بهذه ، وإذا ما وُجد عمل لا يُؤدَّى إلا بالليل كالحراسة مثلاً ، نجد الحق

(١) أخرج البخاري في صحيحه (٣٢٨٠) من حديث جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال : « إذا استجنح الليل - أو كان جنح الليل - فكفّوا صبيانكم ، فإن الشياطين تنتشر حينئذ ، فإذا ذهب ساعة من العشاء فخلوهم ، وأغلق بابك ، واذكر اسم الله ، وأطفىء مصباحك ، واذكر اسم الله ، وأوك سقاءك واذكر اسم الله ، وخمّر إناءك واذكر اسم الله ، ولو تعرض عليه شيئاً » .

سبحانه يفتح لنا باباً لنخرج من هذه القاعدة العامة .

فيقول تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .. (٢٣)﴾ [الروم]

فجعل النهار أيضاً محلاً للنوم ، فأعطانا فُسْحة ورُخْصة ، ولكن في أضيق نطاق ، فمَنْ لا يقومون بأعمالهم إلا في الليل ، وهي نسبة ضئيلة لا تخرق القاعدة العامة التي ارتضاها الحق سبحانه لتنظيم حركة حياتنا .

فإذا خرج الإنسان عن هذه القاعدة ، وتمرَّد على هذا النظام الإلهي ، فإن الحق سبحانه يَردعه بما يكبح جماحه ، ويحميه من إسرافه على نفسه ، وهذا من لُطْفه تعالى ورحمته بخَلْقه .

هذا الردْع إما رَدْع ذاتيّ اختياري ، وإما رَدْع قَهْريّ ، الردع الذاتي يحدث للإنسان حينما يسعى في حركة الحياة ويعمل ، فيحتاج إلى طاقة ، هذه الطاقة تحتاج إلى دم متدفق يجري في أعضائه ، فإنْ زادتْ الحركة عن طاقة الإنسان يلهث وتتلاحق أنفاسه ، وتبدو عليه أمارات التعب والإرهاق ، لأن الدم المتوارد إلى رئته لا يكفي هذه الحركة .

وهذا نلاحظه مثلاً في صعود السُّلَّم ، حيث حركة الصعود مناقضة لجاذبية الأرض لك ، فتحتاج إلى قوة أكثر ، وإلى دم أكثر وتنفس فوق التنفس العادي .

فكأن الحق سبحانه وتعالى جعل التعب والميل إلى الراحة رادعاً ذاتياً في الإنسان ، إذا ما تجاوز حَدّ الطاقة التي جعلها الله فيه .

أما الردْع القهـرى فهو النوم ، يلقيه الله على الإنســان إذا ما كابر وغالط نفســه ، وظن أنه قادر على مزيد من العمـل دون راحة ، فهنا يأتى دور الرادع القَسْـرى ، فينام رغمـاً عنه ولا يستطيع المقـاومة ، وكـأن الطبيـعة التـى خلقهـا الله فيـه تقـول له : ارحم نفسك ، فـإنك لم تَعُدْ صالحاً للعمل .

فالحق تبـارك وتعالى لا يُسلِم الإنســان لاختياره ، بـل يُلقى عليه النوم وفقدان الوعى والحركة ليحميه من حماقته وإسرافه على نفسه .

لذلك نرى الواحد منّا إذا ما تعرّض لمـناسبة اضطرته لعدم النوم لمدة يومين مثلاً ، لا بُدَّ له بعد أن ينتهى من مهمته هذه أنْ ينَام مثل هذه المـدة التى سهـرها ؛ ليأخذ الـجسم حقَّـه من الراحة الـتى حُرِم منها .

وقوله تعالى : ﴿ آيَتَيْنِ .. ⟨١٢⟩ ﴾ [الإسراء]

قلنا : إن الآية هى الشىء العجيب الذى يدعـو إلى التأمل ، ويُظهِر قدرة الخالق وعظمته سبحانه ، والآية تُطلَق على ثلاثة أشياء :

- تُطلَق على الآيات الكونيـة التى خلقـها الله فى كـونه وأبدعهـا ، وهذه الآيات الكونيـة يلتـقى بهـا المؤمن والكـافر ، ومنهـا كمـا قـال تعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ .. ⟨٣٧⟩ ﴾ [فصلت]

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِى الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ ⟨٣٢⟩ ﴾ [الشورى]

وهذه الآيات تلفتنا إلى قدرة الخالق سبحانه وتعالى .

- وتُطلق الآيات على المعجزات التى تصاحب الرسل ، وتكون دليلاً على صدْقهم ، فكل رسول يُبعَث ليحمل رسالة الخالق لهداية الخلْق ، لا بُدَّ أن يأتى بدليل على صدْقه وأمارة على أنه رسول .

وهذه هى المعجزة ، وتكون مما نبغ فيه قومه ومهروا ؛ لتكون أوضح فى إعجازهم وادْعَى إلى تصديقهم .

قال تعالى : ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ ..(٥٩)﴾ [الإسراء]

- وتُطلق الآيات على آيات القرآن الكريم الحاملة للأحكام .

إذن : هذه أنواع ثلاثة ، فى كل منها عجائب تدعوك للتأمل ، ففى **الأولى** : هندسة الكون ونظامه العجيب البديع الدقيق ، وفى **الثانية** : آيات الإعجاز ، حيث أتى بشىء نبغ فيه القوم ، ومع ذلك لم يستطيعوا الإتيان بمثله ، وفى **الثالثة** : آيات القرآن وحاملة الأحكام ؛ لأنها أقوم نظام لحركة الحياة .

فقول الحق سبحانه : ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ .. (١٢)﴾ [الإسراء]

أى : كونيتين ، ولا مانع أنْ تفسر الآياتُ الكونية آيات القرآن .

وقوله : ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ .. (١٢)﴾ [الإسراء]

أى : بعد أنْ كان الضوء غابت الشمس فَحَلَّ الظلام ، أو مَحوْناهَا : أى جعلناها هكذا ، كما قلنا : سبحان مَنْ بيَّض اللبن . أى خلقه هكذا ، فيكون المراد : خلق الليل هكذا مظلماً .

﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً .. (١٢)﴾ [الإسراء]

أى : خلقنا النهار مضيئاً ، ومعنى مبصرة أو مضيئة أى : نرى بها الأشياء ؛ لأن الأشياء لا تُرى فى الظلام ، فإذا حلَّ الضياء والنور رأيناها ، وعلى هذا كان ينبغى أن يقول : وجعلنا آية النهار مُبْصَراً فيها ، وليست هى مبصرة .

وهذه كما فى قوله تعالى فى قصة موسى وفرعون : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً .. ⑬ ﴾ [النمل]

فنسب البصر إلى الآيات ، كما نسب البصر هنا إلى النهار .

وهذه مسألة حيَّرتْ الباحثين فى فلسفة الكون وظواهره ، فكانوا يظنون أنك ترى الأشياء إذا انتقل الشعاع من عينك إلى المرئى فتراه . إلى أن جاء العالم الإسلامى « ابن الهيثم » الذى نَوَّر الله بصيرته ، وهداه إلى سرِّ رؤية الأشياء ، فأوضح لهم ما وقعوا فيه من الخطأ ، فلو أن الشعاع ينتقل من العين إلى المرئى لأمكنك أن ترى الأشياء فى الظُّلمة إذا كنتَ فى الضوء .

إذن : الشعاع لا يأتى من العين ، بل من الشىء المرئى ؛ ولذلك نرى الأشياء إنْ كانت فى الضوء ، ولا نراها إنْ كانت فى الظلام .

وعليه يكون الشىء المرئىّ هو الذى يبصرك من حيث هو الذى يتضح لك ، ويساعدك على رؤيته ، ولذلك نقول : هذا شىء يُلفت النظر أى : يرسل إليك مَا يجعلك تلتفت إليه .

إذن : التعبير القرآنى : ﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً .. ⑫ ﴾ [الإسراء] على مستوى عالٍ من الدقة والإعجاز ، وصدق الله تعالى حين قال : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. ⑤③ ﴾ [فصلت]

وقوله تعالى : ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ .. (١٢)﴾ [الإسراء]

وهذه هى العلة الأولى لآية الليل والنهار .

أى : أن السعى وطلب الرزق لا يكون إلا فى النهار ؛ لذلك أتى طلب فضل الله ورزقه بعد آية النهار ، ومعلوم أن الإنسان لا تكون له حركة نشاطية وإقبال على السّعى والعمل إلا إذا كان مرتاحاً ولا تتوفر له الراحة إلا بنوم الليل .

وبهذا نجد فى الآية الكريمة نفس الترتيب الوارد فى قوله تعالى :

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (٧٣)﴾ [القصص]

فالترتيب فى الآية يقتضى أن نقول : ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ .. (٧٣)﴾ [القصص] أى : فى الليل ، ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (٧٣)﴾ [القصص] أى : فى النهار ، وعمل النهار لا يتم إلا براحة الليل ، فهما - إذن - متكاملان .

والحق سبحانه وتعالى جعل النهار مَحلاً للحركة وابتغاء فضل الله ؛ لأن الحركة أمرٌ مادىّ وتفاعل مادىّ بين الإنسان ومادة الكون من حوله ، كالفلاح وتفاعله مع أرضه ، والعامل وتفاعله مع آلته .

هذا التفاعل المادى لا يتم إلا فى ضوء ؛ لأن الظلمة تغطى الأشياء وتُعميها ، وهذا يتناسب مع الليل حيث ينام الناس ، أما فى السعى والحركة فلا بُدَّ من ضوء أتبين به الفاعل والمنفعل له ، ففى الظلمة قد تصطدم بما هو أقوى منك فيحطمك ، أو بما هو أضعف منك فتحطمه .

إذن : فأول خطوات ابتغاء فضل الله أن يتبيّن الإنسان المادة التى يتفاعل معها . لذلك ، فالحق سبحانه جعل الظلمة سابقة للضياء ، فقال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ .. ۝١ ﴾ [الأنعام]

لأن النور محلٌّ للحركة ، ولا يمكن للإنسان أن يعمل إلا بعد راحة ، والراحة لا تكون إلا فى ظُلْمة الليل .

وقوله تعالى : ﴿ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ .. ۝١٢ ﴾ [الإسراء]

وهذه هى العِلَّة الأخرى لليل والنهار ، حيث بمرورهما يتمّ حساب السنين .

وكلمة « عَدَدَ » تقتضى شيئاً له وحدات ، ونريد أن نعرف كمية هذه الوحدات ؛ لأن الشىء إنْ لم تكُنْ له كميات متكررة فهو واحد .

وقوله : ﴿ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ .. ۝١٢ ﴾ [الإسراء]

لأنها من لوازم حركتنا فى الحياة ، فعن طريق حساب الأيام نستطيع تحديد وقت الزراعات المختلفة ، أو وقت سقوط المطر ، أو هبوب الرياح . وفى العبادات نحدد بها أيام الحج ، وشهر الصوم ، ووقت الصلاة ، ويوم الجمعة ، هذه وغيرها من لوازم حياتنا لا نعرفها إلا بمرور الليل والنهار .

ولو تأملتَ عظمة الخالق سبحانه لوجدتَ القمر فى الليل ، والشمس فى النهار ، ولكل منهما مهمة فى حساب الأيام والشهور والسنين ، فالشمس لا تعرف بها إلا اليوم الذى أنت فيه ، حيث يبدأ اليوم بشروقها وينتهى بغروبها ، أما بالقمر فتستطيع حساب الأيام والشهور ؛ لأن الخالق سبحانه جعل فيه علامة ذاتية يتم الحساب على

أساسها ، فهو فى أول الشهر هلال ، ثم يكبر فيصير إلى تربيع أول ، ثم إلى تربيع ثان ، ثم إلى بدر ، ثم يأخذ فى التناقص إلى أن يصل إلى المحاق آخر الشهر .

إذن : نستطيع أن نحدد اليوم بالشمس والشهور بالقمر ، ومن هنا تثبت مواقيت العبادة بالليل دون النهار ، فتثبت رؤية رمضان ليلاً أولاً ، ثم يثبت نهاراً ، فنقول : الليلة أول رمضان ، لذلك قال تعالى :

﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ[1] لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ .. (٥)﴾ [يونس]

فقوله : ﴿قَدَّرَهُ.. (٥)﴾ [يونس] أى : القمر ؛ لأن به تتبين أوائل الشهور ، وهو أدقّ نظام حسابى يُعتمد عليه حتى الآن عند علماء الفلك وعلماء البحار وغيرهم .

و ﴿مَنَازِلَ.. (٥)﴾ [يونس] هى البروج الاثنى عشر للقمر التى أقسم الله بها فى قوله تعالى : ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣)﴾ [البروج]

ولأن حياة الخَلْق لا تقوم إلا بحساب الزمن ، فقد جعل الخالق سبحانه فى كَوْنه ضوابط تضبط لنا الزمن ، وهذه الضوابط لا تصلح لضبط الوقت إلا إذا كانت هى فى نفسها منضبطة ، فمثلاً أنت لا تستطيع أن تضبط مواعيدك على ساعتك إذا كانت غير منضبطة (تُقدِّم أو تُؤخِّر) .

لذلك يقول الخالق المبدع سبحانه عن ضوابط الوقت فى كَوْنه :

(١) أى : قدرناه له فى سيره أن ينزل فى أماكن محددة ، تجعله مرة هلالاً ، ومرة بدراً ، ومرة كالعرجون القديم فى إشرافه على المحاق آخر الشهر . [القاموس القويم ٢/٢٦٠] .

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥﴾ [الرحمن]

أى : بحساب دقيق لا يختلّ ، وطالما أن الخالق سبحانه خلقها بحساب فاجعلوها ضوابط لحساباتكم .

وقوله تعالى : ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً ۝١٢﴾ [الإسراء]

معنى التفصيل أن تجعل بَيْناً بين شيئين ، وتقول : فصلتُ شيئاً عن شيء ، فالحق سبحانه فصَّل لنا كل ما يحتاج إلى تفصيل ، حتى لا يلتبس علينا الأمر فى كل نواحى الحياة .

ومثال ذلك فى الوضوء مثلاً يقول سبحانه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ.. ۝٦﴾ [المائدة]

فأطلق غَسْل الوجه ؛ لأنه لا يختلف عليه أحد ، وحدَّد الأيدى إلى المرافق ، لأن الأيدى يُختلف فى تحديدها ، فاليد قد تكون إلى الرُّسْغ ، أو إلى المرفق ، أو إلى الكتف ، لذلك حددها الله تعالى ، لأنه سبحانه يريدها على شكل مخصوص .

وكذلك فى قوله تعالى : ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ.. ۝٦﴾ [المائدة]

فالرأس يناسبها المسْح لا الغَسْل ، والرِّجْلاَن كاليد لابُدَّ أنْ تُحدَّد . فإذا لم يوجد الماء أو تعذَّر استعماله شرع لنا سبحانه التيمم ، فقال تعالى : ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا[1] طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ .. ۝٤٣﴾ [النساء]

---

(١) الصعيد : هو كل تراب طيب . وقال الشافعى : لا يقع اسم صعيد إلا على تراب ذى غبار . وقال أبو إسحاق : الصعيد وجه الأرض وعلى الإنسان أن يضرب بيديه وجه الأرض ، ولا يبالى أكان فى الموضع تراب أو لم يكن ، لأن الصعيد ليس هو التراب ، إنما هو وجه الأرض ، تراباً كان أو غيره . [لسان العرب ـ مادة : صعد] .

والتيمم يقوم مقام الوضوء ، من حيث هو استعداد للصلاة ولقاء الحق سبحانه وتعالى ، وقد يظنّ البعض أن الحكمة من الوضوء الطهارة والنظافة ، وكذلك التيمُّم ؛ لذلك يقترح بعضهم أن نُنظّف أنفسنا بالكولونيا مثلاً .

نقول : ليس المقصود بالوضوء أو التيمم الطهارة أو النظافة ، بل المراد الاستعداد للصلاة وإظهار الطاعة والانصياع لشرع الله تعالى ، وإلا كيف تتم الطهارة أو النظافة بالتراب ؟

هذا الاستعداد للصلاة هو الذى جعل سيدنا على زين العابدين رضى الله عنه يَصْفرّ وجهه عند الوضوء ، وعندما سُئل عن ذلك قال : أتعلمون على مَنْ أنا مُقبل الآن ؟

فللقاء الحق سبحانه وتعالى رهبة يجب أن يعمل لها المؤمن حساباً ، وأنْ يستعدّ للصلاة بما شرعه له ربه سبحانه وتعالى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ[1] فِى عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ﴾

كلمة (طائره) أى : عمله وأصلها أن العرب كانوا فى الماضى يزجرون الطير ، أى : إذا أراد أحدهم أنْ يُمضىَ عملاً يأتى بطائر ثم يطلقه ، فإنْ مَرّ من اليسار إلى اليمين يسمونه « السانح »[2] ويتفاءلون

---

(١) قال الحسن : أى شقاوته وسعادته ، وما كتب له من خير وشر وما طار له من التقدير ، أى : صار له عند القسمة فى الأزل . [تفسير القرطبى ٥/٣٩٥٧] .

(٢) السانح : ما أتاك عن يمينك من ظبى أو طائر أو غير ذلك . والبارح : ما أتاك من ذلك عن يسارك . [لسان العرب ـ مادة : سنح] .

به ، وإنْ مَرّ من اليمين إلى اليسار يسمونه « البارح » ويتشاءمون به ، ثم يتهمون الطائر وينسبون إليه العمل ، ولا ذنب له ولا جريرة .

إذن : كانوا يتفاءلون باليمين ، ويتشاءمون باليسار ، وقد كان النبى ﷺ يحب الفأل الحسن[1] ، ولا يحب التشاؤم ؛ لأن الفأل الطيب يُنشّط أجهزة الجسم انبساطاً للحركة ، أما التشاؤم فيدعو للتراجع والإحجام ، ويقضى على الحركة والتفاعل فى الكون .

والحق سبحانه هنا يُوضّح : لا تقولوا الطائر ولا تتهموه ، بل طائرك أى : عملك فى عنقك يلازمك ولا ينفكّ عنك أبداً ، ولا يُسأل عنه غيره ، كما أنه لا يُسأل عن عمل الآخرين ، كما قال تعالى :
﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ .. (١٥)﴾ [الإسراء]

فلا تُلقى بتبعة أفعالك على الحيوان الذى لا ذنب له .

وقوله تعالى : ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣)﴾ [الإسراء]

وهو كتاب أعماله الذى سجّلته عليه الحفظة الكاتبون ، والذى قال الله عنه : ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩)﴾ [الكهف]

هذا الكتاب سيلقاه يوم القيامة منشوراً . أى : مفتوحاً مُعداً للقراءة .

---

(١) عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يعجبني الفأل الصالح ، والفأل الصالح : الكلمة الحسنة » أخرجه أحمد فى مسنده (١١٨/٣ ، ١٥٤) وأبو الشيخ الأصبهانى فى أخلاق النبى (حديث ٧٩٤) .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾

الحق تبارك وتعالى يُصوِّر لنا موقفاً من مواقف يوم القيامة ، حيث يقف العبد بين يدىْ ربه عزَّ وجل ، فيدعوه إلى أن يقرأ كتابه بنفسه ، ليكون هو حجة على نفسه[1] ، ويُقر بما اقترف ، والإقرار سيد الأدلة .

فهذا موقف لا مجالَ فيه للعناد أو المكابرة ، ولا مجالَ فيه للجدال أو الإنكار ، فإن حدث منه إنكار جعل الله عليه شاهداً من جوارحه ، فيُنطقها الحق سبحانه بقدرته :

يقول تعالى : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النور]

ويقول سبحانه : ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [فصلت]

وقد جعل الخالق سبحانه للإنسان سيطرةً على جوارحه فى الدنيا ، وجعلها خاضعة لإرادته لا تعصيه فى خير أو شر ، فبيده يضرب ويعتدى ، وبيده يُنفق ويقيل عثرة المحتاج ، وبرجْله يسعى إلى بيت الله أو يسعى إلى مجلس الخمر والفساد .

وجوارحه فى كل هذا مُسخَّرة طائعة لا تتأبى عليه ، حتى وإن كانت كارهة للفعل ؛ لأنها منقادة لمراداتك ، ففعْلها لك ليس دليلاً على

(١) قال بعض الصلحاء : هذا كتاب ، لسانك قلمك ، وريقك مداده ، وأعضاؤك قرطاسه ، أنت كنت المملي على حفظتك ، ما زيد فيه ولا نُقص منه ، ومتى أنكرت منه شيئاً يكون فيه الشاهد منك عليك . [تفسير القرطبى ٥/٣٩٥٨] .

الرضى عنك ؛ لأنه قد يكون رضى انقياد .

وقد ضربنا مثلاً لذلك بقائد السرية ، فأمره نافذ على جنوده ، حتى وإن كان خطئاً ، فإذا ما فقد هذا القائد السيطرة وأصبح الجنود أمام القائد الأعلى باحوا له بكل شيء .

كذلك في الدنيا جعل الله للإنسان إرادة على جوارحه ، فلا تتخلف عنه أبداً ، لكنها قد تفعل وهي كارهة وهي لاعنةٌ له ، وهي مُبغضة له ولفعْله ، فإذا كان يوم القيامة وانحلَّت من إرادته ، وخرجتْ من سجن سيطرته ، شهدتْ عليه بما كان منه .

﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً (١٤) ﴾ [الإسراء]

أى : كفانا أن تكون أنت قارئاً وشاهداً على نفسك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥) ﴾

قوله تعالى : ﴿ مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ .. (١٥) ﴾ [الإسراء]

لأن الحق سبحانه لا تنفعه طاعة ، ولا تضره معصية ، وهو سبحانه الغنيّ عن عباده ، وبصفات كماله وضع منهج الهداية للإنسان الذى جعله خليفة له فى أرضه ، وقبل أنْ يخلقه أعدَّ له مُقوِّمات الحياة

كلها من أرض وسماء ، وشمس وقمر ، وهواء وجبال ومياه .

فصفات الكمال ثابتة له سبحانه قبل أن يخلق الخَلْق ، إذن : فطاعتهم لن تزيده سبحانه شيئاً ، كما أن معصيتهم لن تضرّه سبحانه فى شىء .

وهنا قد يسأل سائل : فلماذا التكليفات إذن ؟

نقول : إن التكليف من الله لعباده من أجلهم وفى صالحهم ، لكى تستمر حركة حياتهم ، وتتساند ولا تتعاند ؛ لذلك جعل لنا الخالق سبحانه منهجاً نسير عليه ، وهو منهج واجب التنفيذ لأنه من الله ، من الخالق الذى يعلم من خلق ، ويعلم ما يصلحهم ويُنظم حياتهم ، فلو كان منهجَ بشرٍ لبشر لكان لك أنْ تتأبّى عليه ، أما منهج الله فلا ينبغى الخروج عليه .

لذلك نسمع فى الأمثال الدارجة عند أهل الريف يقولون : الأصبع الذى يقطعه الشرع لا ينزف ، والمعنى أن الشرع هو الذى أمر بذلك ، فلا اعتراضَ عليه ، ولو كان هذا بأمر البشر لقامت الدنيا ولم تقعُدْ .

ومن كماله سبحانه وغنَاهُ عن الخَلْق يتحمل عنهم ما يصدر عنهم من أحكام أو تجنٍّ أو تقصير ؛ ذلك لأن كل شىء عنده بمقدار ، ولا يُقضى أمر فى الأرض حتى يُقضى فى السماء ، فإذا كلَّفْتَ واحداً بقضاء مصلحة لك ، فقصّر فى قضائها ، أو رفض ، أو سعى فيها ولم يُوفّق نجدك غاضباً عليه حانقاً .

وهنا يتحمّل الخالق سبحانه عن عباده ، ويُعفيهم من هذا الحرج ،

ويعلمهم أن الحاجات بميعاد وبقضاء عنده سبحانه ، فلا تلوموا الناس ، فلكل شيء ميلاد ، ولا داعيَ لأنْ نسبق الأحداث ، ولننتظر الفرج وقضاء الحوائج من الله تعالى أولاً .

ومن هنا يُعلِّمنا الإسلام قبل أن نَعد بعمل شيء لا بُدَّ أنْ نسبقه بقولنا : إنْ شاء الله لنحمي أنفسنا ، ونخرج من دائرة الحرج أو الكذب إذا لم نستطع الوفاء ، فأنا ـ إذن ـ في حماية المشيئة الإلهية إنْ وُفِّقْتُ فبها ونعْمت ، وإنْ عجزتُ فإن الحق سبحانه لم يشأ ، وأخرج أنا من أوسع الأبواب .

إذن : تشريعات الله تريد أن تحمي الناس من الناس ، تريد أن تجتث أسباب الضغن على الآخر ، إذا لم تقض حاجتك على يديه ، وكأن الحق سبحانه يقول لك : تمهل فلكل شيء وقته ، ولا تظلم الناس ، فإذا ما قضيتَ حاجتك فاعلم أن الذي كلَّفْته بها ما قضاها لك في الحقيقة ، ولكن صادف سَعْيُه ميلادَ قضاء هذه الحاجة ، فجاءت على يديه ، فالخير في الحقيقة من الله ، والناس أسباب لا غير .

وتتضح لنا هذه القضية أكثر في مجال الطب وعلاج المرضى ، فالطبيب سبب ، والشفاء من الله ، وإذا أراد الله لأحد الأطباء التوفيق والقبول عند الناس جعل مجيئه على ميعاد الشفاء فيلتقيان .

ومن هنا نجد بعض الأطباء الواعين لحقيقة الأمر يعترفون بهذه الحقيقة ، فيقول أحدهم : ليس لنا إلا في (الخضرة) .

والخضرة معناها : الحالة الناجحة التي حان وقت شفائها .

وصدق الشاعر حين قال :

والنـاسُ يلْحون الطَّبِيبَ وإنَّما خَطَـأُ الطَّبِيبِ إصَـابَةُ الأقْدارِ

فيقول الحق تبارك وتعالى : ﴿مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ..﴿١٥﴾﴾[الإسراء] أى : لصالح نفسه .

والاهتداء : يعنى الالتزام بمنهج الله ، والتزامك عائد عليك ، وكذلك التزام الناس بمنهج الله عائد عليك أيضاً ، وأنت المنتفع فى كل الأحوال بهذا المنهج ؛ لذلك حينما ترى شخصاً مستقيماً عليك أن تحمد الله ، وأن تفرحَ باستقامته ، وإياك أن تهزأ به أو تسخر منه ؛ لأن استقامته ستعود بالخير عليك فى حركة حياتك .

وفى المقابل يقول الحق سبحانه : ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا..﴿١٥﴾﴾ [الإسراء]

أى : تعود عليه عاقبةُ انصرافه عن منهج الله ؛ لأن شرَّ الإنسان فى عدم التزامه بمنهج الله يعود عليك ويعود على الناس من حوله ، فيشقى هو بشرِّه ، ويشقى به المجتمع .

ومن العجب أن نرى بعض الحمقى إذا رأى مُنحرفاً أو سيء السلوك ينظر إليه نظرة بُغْض وكراهية ، ويدعو الله عليه ، وهو لا يدرى أنه بهذا العمل يزيد الطين بلة ، ويُوسِّع الخُرْق على الراقع كما يقولون .

فهذا المنحرف فى حاجة لمَنْ يدعو الله له بالهداية ، حتى تستريح أولاً من شرِّه ، ثم لنتمتع بخير هدايته ثانياً . أما الدعاء عليه فسوف يزيد من شرِّه ، ويزيد من شقاء المجتمع به .

ومن هذا المنطلق علَّمنا الإسلام أن مَنْ كانت لديه قضية علمية تعود بالخير ، فعليه أنْ يُعديها إلى الناس ؛ لأنك حينما تُعَدِّى الخير

إلى الناس ستنتفع بأثره فيهم ، فكما انتفعوا هم بآثار خلالك الحميدة ، فيمكنك أنت أيضاً الانتفاع بآثار خلالهم الحميدة إن نقلتها إليهم .

لذلك حرّم الإسلام كَتْم العلم لما يُسبِّبه من أضرار على الشخص نفسه وعلى المجتمع .

يقول ﷺ :« من كتم علماً ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة»[1] .

وكذلك من الكمال الذى يدعونا إليه المنهج الإلهى أن يُتقِن كل صاحب مهنة مهنته ، وكل صاحب صَنْعة صَنْعته ، فالإنسان فى حركة حياته يُتقِن عملاً واحداً ، لكن حاجاته فى الحياة كثيرة ومتعددة .

فالخياط مثلاً الذى يخيط لنا الثياب لا يتقن غير هذه المهنة ، وهو يحتاج فى حياته إلى مِهَن وصناعات كثيرة ، يحتاج إلى : الطبيب والمعلم والمهندس والحداد والنجار والفلاح .. الخ .

فلو أتقن عمله وأخلص فيه لَسخَّر الله له مَنْ يتقن له حاجته ، ولو رَغْماً عنه ، أو عن غير قصد ، أو حتى بالمصادفة .

إذن : من كمالك أن يكون الناس فى كمال ، فإنْ أتقنتَ عملك فأنت المستفيد حتى إنْ كان الناس من حولك أشراراً لا يتقنون شيئاً ، فسوف يُيسِّر الله لهم سبيل إتقان حاجتك ، من حيث لا يريدون ولا يشعرون .

---

(١) أخرجه ابن حبان (٩٦ ـ موارد الظمآن) ، والحاكم فى مستدركه (١٠٢/١) وقال : هذا إسناد صحيح من حديث المصريين على شرط الشيخين وليس له علة . وأقره الذهبى .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ .. ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء]

أى : لا يحمل أحدٌ ذنبَ أحد ، ولا يُؤاخَذ أحدٌ بجريرة غيره ، وكلمة : ﴿تَزِرُ وَازِرَةٌ .. ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء]

من الوزر : وهو الحِمْل الثقيل ، ومنها كلمة الوزير : أى الذى يحمل الأعباء الثقيلة عن الرئيس ، أو الملك ، أو الأمير .

فعدْلُ الله يقتضى أنْ يُحاسب الإنسان بعمله ، وأنْ يُسأل عن نفسه ، فلا يرمى أحد ذنبه على أحد ، كما قال تعالى : ﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا ..﴿٣٣﴾﴾ [لقمان]

وحول هذه القضية تحدَّث كثير من المستشرقين الذين يبحثون فى القرآن عن مآخذ ، فوقفوا عند هذه الآية : ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ .. ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء]

وقالوا : كيف نُوفِّق بينها وبين قوله : ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ .. ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت]

وقوله تعالى : ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النحل]

ونقول : التوفيق بين الآية الأولى والآيتين الأخيرتين هيِّن لو فهموا الفرق بين الوِزْر فى الآية الأولى ، والوِزْر فى الآيتين الأخيرتين .

ففى الأولى وزر ذاتىٌّ خاص بالإنسان نفسه ، حيث ضلَّ هو فى نفسه ، فيجب أنْ يتحمَّل وزْر ضلاله . أما فى الآية الثانية فقد أضلَّ

غيره ، فتحمَّل وِزْره الخاص به ، وتحمَّل وِزْر مَنْ أضلَّهم .

ويُوضِّح لنا هذه القضية الحديث النبوى الشريف : « من سن فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ومن سن فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء »[1] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴿١٥﴾ ﴾ [الإسراء]

العذاب : عقوبة على مخالفة ، لكن قبل أنْ تُعاقبنى عليها لا بُدَّ أن تُعلِّمنى أن هذه مخالفة أو جريمة (وهى العمل الذى يكسر سلامة المجتمع) ، فلا جريمةَ إلا بنصٍّ ينصُّ عليها ويُقنِّنها ، ويُحدِّد العقاب عليها ، ثم بعد ذلك يجب الإعلام بها فى الجرائد الرسمية لكى يطلع عليها الناس ، وبذلك تُقام عليهم الحجة إنْ خالفوا أو تعرَّضوا لهذه العقوبة .

لذلك حتى فى القانون الوضعى نقول : لا عقوبة إلا بتجريم ، ولا تجريم إلا بنصٍّ ، ولا نصَّ إلا بإعلام .

فإذا ما اتضحت هذه الأركان فى أذهان الناس كان للعقوبة معنى ، وقامت الحجة على المخالفين ، أما أنْ نعاقب شخصاً على جريمة هو لا يعلم بها ، فله أن يعترضَ عليك من منطلق هذه الآية .

أما أنْ يُجرِّم هذا العمل ، ويُعلَن عنه فى الصحف الرسمية ، فلا

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠١٧) من حديث جرير بن عبد الله البجلى .

حجة لمَنْ جهله بعد ذلك ؛ لأن الجـهل به بعد الإعلام عنه لا يُعفى من العقوبة .

فكان قـول الله تعـالى : ﴿وَمَـا كُنَّا مُـعَـذِّبِينَ حَـتَّىٰ نَبْـعَثَ رَسُولاً (١٥)﴾[الإسراء] يجمع هذه الأركان السابقة : الجريمة ، والعقوبة ، والنص ، والإعـلام ، حيث أرسل الله الرسـول يُعلِّم الناس منهج الحق سبحانه ، ويُحدّد لهم ما جرَّمه الشرع والعقوبة عليه .

لذلك يقـول تعـالى فى آية أخـرى : ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّـةٍ إِلاَّ خَـلا فِـيهَا نَذِيرٌ (٢٤)﴾ [فاطر]

ويقول : ﴿يَـا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ[1] مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ.. (١٩)﴾ [المائدة]

إذن : قد انقطعت حجتكم برسالة محمد البشير النذير ﷺ .

وقد وقف العلمـاء أمام هذه القضيـة فقالوا : إن كانت الحـجة قد قامت على مَن آمن برسالة محمـد ﷺ ، فما بال الكافر الذى لم يؤمن ولم يعلم منهج الله ؟ وكأنهم يلتمسون له العذر بكفره .

نقول : لقـد عرف الإنسان ربه عـز وجل أولاً بعقله ، وبما ركّـبه فيـه خالقـه سبـحانه من مـيزان إيمـانى هو الفطرة ، هذه الفطرة هى المسئولة عن الإيمان بـقوة قاهرة وراء الوجود ، وإنْ لم يأتِ رسول ، والأمثلة كثيرة لتوضيح هذه القضية :

هَبْ أنك قد انقطعتْ بك السُّبل فى صحراء واسعة شاسعة لا تجد

(١) الفترة : هى المدة من الزمن التى تفصل بين نبيين . [القاموس القويم ٢/٧١] .

فيها أثراً لحياة ، وغلبك النومُ فنمْتَ ، وعندما استيقظتَ فوجئت بمائدة منصوبة لك عليها أطايب الطعام والشراب .

بالله ألاَ تفكِّر في أمرها قبل أن تمتدَّ يدُك إليها ؟ ألاَ تلفت انتباهك وتثير تساؤلاتك عمَّنْ أتى بها إليك ؟

وهكذا الإنسان بعقله وفطرته لا بُدَّ أنْ يهتديَ إلى أن للكون خالقاً مُبْدعاً ، ولا يمكن أن يكون هذا النظام العجيب المتقن وليدَ المصادفة ، وهل عرف آدم ربه بغير هذه الأدوات التي خلقها الله فينا ؟

لقد جئنا إلى الحياة فوجدنا عالماً مستوفياً للمقوِّمات والإمكانيات ، وجدنا أمام أعيننا آيات كثيرة دالّة على الخالق سبحانه ، كل منها خيط لو تتبعته لأوصلك . خذ مثلاً الشمس التي تنير الكون على بُعْدها تطلع في الصباح وتغرب في المساء ، ما تخلَّفتْ يوماً ، ولا تأخرت لحظة عن موعدها ، ألاَ تسترعي هذه الآية الكونية انتباهك ؟

وقد سبق أنْ ضربنا مثلاً بـ « أديسون » الذي اكتشف الكهرباء ، وكم أخذ من الاهتمام والدراسة في حين أن الإضاءة بالكهرباء تحتاج إلى أدوات وأجهزة وأموال ، وهي عُرْضة للأعطال ومصدر للأخطار ، فما بالنا نغفل عن آية الإضاءة الربانية التي لا تحتاج إلى مجهود أو أموال أو صيانة أو خلافه ؟

والعربي القُحُّ الذي ما عرف غير الصحراء حينما رأى بَعْر البعير وآثار الأقدام استدلَّ بالأثر على صاحبه ، فقال في بساطة العربي : البَعْرة تدلّ على البعير ، والقدم تدلّ على المسير ، سماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، ونجوم تزهر ، وبحار تزخر ، ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير ؟

إذن : بالفطرة التكوينيـة التى جعلها الله فى الإنـسـان يمكن له أن يهتدى إلى أن للكون خالقاً ، وإنْ لم يعرف مَنْ هو ، مجرد أن يعرف القوة الخفية وراء هذا الكون .

وحـينمـا يـأتى رسـول من عند الله يسـاعـده فى الوصـول إلى ما يبـحث عنه ، ويدلّه على ربه وخالقـه ، وأن هذه القوة الخفـية التى حيَّرتْك هى (الله) خالقك وخالق الكون كله بما فيه ومَن فيه .

وهو سبحانه واحد لا شريك له ، شهد لنفسه أنه لا إله إلا هو[1] ، ولم يعـارضـه أحـد ولم يَدَّعِ أحـد أنه إله مع الله ، وبذلـك سلَمَتْ له سبـحانه هذه الدعوى ؛ لأن صاحب الدعـوة حين يدَّعيـها تسلم له إذا لم يوجد معارض لها .

وهذه الفطرة الإيمانيـة فى الإنسان هى التى عنَاهَا الحق سبـحانه فى قـوله تعـالى : ﴿ وَإِذْ أَخَـذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُـورِهِمْ ذُرِّيَّتَـهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ .. ﴿١٧٢﴾ ﴾ [الأعراف]

وهذا هو العَـهْد الإلهى الذى أخـذه الله على خَلْقه وهم فى مـرحلة الذَّرِّ ، حيث كانوا جميعاً فى آدم ـ عليه السلام ـ فالأنْسَال كلها تعود إليـه ، وفى كل إنسان إلى يوم القـيامـة ذرة من آدم ، هذه الذرة هى التى شـهـدتْ هذا العـهـد ، وأقـرَّتْ أنـه لا إله إلا الله ، ثم ذابتْ هذه الشهادة فى فطرة كل إنسان ؛ لذلك نسميها الفطرة الإيمانية .

ونقول للكافـر الذى أهمل فطرته الإيمانية وغفل عنهـا ، وهى تدعوه

---

(١) يقول تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران] .

إلى معرفة الله : كيف تشعر بالجوع فتطلب الطعام ؟ وكيف تشعر بالعطش فتطلب الماء ؟ أرأيت الجوع أو لمسْتَه أو شَمَمْـتَه ؟ إنها الفطرة والغريزة التى جعلها الله فيك ، فلماذا استخدمت هذه ، وأغفلت هذه ؟

والعجيب أن ينصرف الإنسان العاقل عن ربه وخالقه فى حين أن الكون كله من حوله بكل ذراته يُسبِّح بحمد ربِّه ، فذراتُ الكون وذراتُ التكوين فى المؤمن وفى الكافر تُسبِّح بحمد ربها ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾

[الإسراء]

فكيف بك يا سيد الكون تغفل عن الله والذرات فيك مُسبِّحة ، فإن كانت ذرات المؤمن حدث بينه وبين ذرات تكوينه انسجام واتفاق ، وتجاوب تسبيحه مع تسبيح ذراته وأعضائه وتوافقت إرادته الإيمانية مع إيمان ذراته ، فترى المؤمن مُنْسجماً مع نفسه مع تكوينه المادى .

ويظهر هذا الانسجام بين إرادة الإنسان وبين ذرّاته وأعضائه فى ظاهرة النوم ، فالمؤمن ذرّاته وأعضاؤه راضية عنه تُحبه وتُحب البقاء معه لا تفارقه ؛ لأن إرادته فى طاعة الله ، فترى المؤمن لا ينام كثيراً مجرد أن تغفل عينه ساعةً من ليل أو نهار تكفيه ذلك ؛ لأن أعضاءه فى انسجام مع إرادته ، وهؤلاء الذين قال الله فيهم :

﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) ﴾ [الذاريات]

وكان النبى ﷺ تنام عينه ولا ينام قلبه[1] ، لأنه فى انسجام تام

(١) عن أنس رضى الله عنه قال : كان النبى ﷺ تنام عيناه ، ولا ينام قلبه . أخرجه الحاكم فى مستدركه (٤٣١/٢) وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . وأخرج مسلم من حديث عائشة (٧٣٨) : « يا عائشة إن عينىَّ تنامان ولا ينام قلبى » .

مع إرادته ﷺ . وما أشبه الإنسان فى هذه القضية بسيد شرس سيء الخُلق ، لديه عبيد كثيرون ، يعانون من سُوء معاملته ، فيلتمسون الفرصة للابتعاد عنه والخلاص من معاملته السيئة .

على خلاف الكافر ، فذراته مؤمنة وإرادته كافرة ، فلا انسجام ولا توافق بين الإرادة والتكوين المادى له ، لذا ترى طبيعته قلقة ، ليس هناك تصالح بينه وبين ذراته ، لأنها تبغضه وتلعنه ، وتود مفارقته .

ولولا أن الخالق سبحانه جعلها مُنْقادةً له لما طاوعتْه ، وإنها لتنتظر يوم القيامة يوم أنْ تفكّ من إرادته ، وتخرج من سجنه ، لتنطق بلسان مُبين ، وتشهد عليه بما اقترف فى الدنيا من كفر وجحود ؛ لذلك ترى الكافر ينام كثيراً ، وكأن أعضاءه تريد أن ترتاح من شره .

ولا بُدّ أن نعلم أن ذرات الكون وذرات الإنسان فى تسبيحها للخالق سبحانه ، أنه تسبيح فوق مدارك البشر ؛ لذلك قال تعالى : ﴿وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤)﴾ [الإسراء]

فلا يفقهه ولا يفهمه إلا مَنْ منحه الله القدرة على هذا ، كما منح هذه الميزة لداود ـ عليه السلام ـ فقال : ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩)﴾ [الأنبياء]

وهنا قد يقول قائل : ما الميزة هنا ، والجبال والطير تُسبِّح الله بدون داود ؟

الميزة هنا لداود ـ عليه السلام ـ أن الله تعالى أسمعه تسبيح الجبال وتسبيح الطير ، وجعلها تتجاوب معه فى تسبيحه وكأنه

(كورس) أو نشيد جماعى تتوافق فيه الأصوات ، وتتناغم بتسبيح الله تعالى ، ألم يقل الحق سبحانه فى آية أخرى : ﴿ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُ وَالطَّيْرَ .. ⑩ ﴾ [سبأ]

أى : رَجِّعى معه ورَدِّدى التسبيح .

ومن ذلك أيضاً ما وهبه الله تعالى لنبيه سليمان عليه السلام من معرفة منطق الطير أى لغته ، فكان يسمع النملة وهى تخاطب بنى جنسها(١) ويفهم ما تريد ، وهذا فضل من الله يهبه لمَنْ يشاء من عباده ، لذلك لما فهم سليمان عليه السلام لغة النملة ، وفهم ما تريده من تحذير غيرها تبسم ضاحكاً :

﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِى(٢) أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَالِدَىَّ .. ⑲ ﴾ [النمل]

إذن : لكل مخلوق من مخلوقات الله لغة ومنطق ، لا يعلمها ولا يفهمها إلا مَنْ يُيسِّر الله له هذا العلم وهذا الفهم .

وحينما نقرأ عن هذه القضية نجد بعض كُتَّاب السيرة مثلاً يقولون : سبَّح الحصى فى يد النبى ﷺ نقول لهم : تعبيركم هذا غير دقيق ، لأن الحصى يُسبِّح فى يده ﷺ كما يُسبِّح فى يد أبى جهل ، لكن الميزة أنه ﷺ سمع تسبيح الحصى فى يده ، وهذه من معجزاته ﷺ .

(١) وذلك أن سليمان عليه السلام عندما أتى على وادى النمل هو وجنوده من الجن والإنس والطير قالت نملة : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ⑱ ﴾ [النمل] .

(٢) أوزعه أن يفعل كذا : دفعه وحثه وأغراه ، أو ألهمه وأرشده . ومعنى قول سليمان عليه السلام: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ⑲ ﴾ [النمل] أى : ألهمنى شكرك وادفعنى إليه وحبّبه إلىَّ .